

محمد عبدالله الترهوني



عشيقه

ماركس

محمد عبدالله الترهوني:

عشيقه ماركس

كلمة عشيقة محيرة، إنها كلمة توحى بالشر بالنسبة لمعظم الناس، أي تفكير في هذه الكلمة لا يخلو من هفوات، العشيقة شخص لديه ما يكفي من الذكاء بحيث يقبل أن يكون الشخص الثالث، ليس لكلمة عشيق نفس النبرة التي لكلمة عشيقة، نبرة عشيقة فيها قسوة و نوع من اللؤم، أعداء ماركس قاموا بالتحقق من كل شيء إلا إنسانيته، وأصدقاء ماركس حذفوا كل شيء ليكون ماركس ملاكا، ماركس حارب وحشية العالم، لكن لم يكن هو نفسه أقل وحشية منه، كان أنسانا بآتم معنى الكلمة، لهذا تغلب على العالم، العشيقة التي نتحدث عنها كان اسمها هيلين ديموث ولدت في 31 ديسمبر 1820م، بنت صغيرة من قرية تسمى ساكنت يندل، لم تعرف في حياتها سوى الأرض، أبوها فلاح، أمها فلاحه، كانت طفلة لكنها تعرف جيدا غلاظة الحياة وعدم مرونتها، الفقر ليس سوى نقص في الحياة، عادة ما نجد له تبرير سخيف و سطحي، دائما ما أفكر فيها وهي تمشي خلف والدها في ممر بيت البارون لودفيغ فون ويستفالن مستشار الحكومة ووالد جيني زوجة ماركس في المستقبل، تصور بنت في الثامنة من عمرها لم تعرف الحياة إلا في شكلها الوضع

و القبيح وهي تمشي بين قطع أثاث فاخرة، الكتب، اللوحات الزيتية، السجاد، الهواء المعطر، كل شيء في هذا المكان مفاجأة حقيقية، أما هي نفسها فقد كانت المفاجأة عندما وصلت إلى بروكسل في أبريل 1845م كهدية من والدته جيني لمساعدتها في رعاية الأطفال، كانت هيلين بارعة في كل شيء، الطبخ، الغسل، الكنس، والخبز، وصنع البيرة بالطريقة المحلية، جيني كانت بارونة مدللة لم تكن قادرة على تحمل الدوار بسبب صعوبة الحياة، لكن "لينشن" وهذا اسم هيلين داخل عائلة ماركس كانت ابنت الفقير، ابنت الشعب، لهذا تركت جيني كل شيء لهيلين، تركت البيت وماركس للسفر والبحث عن الدعم المالي للعائلة، ربما هذه المرة الوحيدة التي تأخذ فيها العشيقة دور الزوجة، والزوجة تتحول إلى عشيقة، لهذا كلمة عشيقة توحى بالمفارقة وهذا ما يربع الناس منها، العشيقة تشير إلى عمل دون انتظار مكافأة، إنها مكان الغيرة والامتناع والكراهية والكثير من الأسف، لهذا أنا أقف أمام هذه الكلمة بعيون مغمض العينين حتى أراها جيدا؛ الناس تنظر إلى هذه الكلمة كأنها ظل سحابة سوداء، ويحبون النظر إليها وهي تتحدر نحو قاع مفهوم الخيانة، لكن هذه الكلمة لا تتطلب المغفرة من أحد، وتضحك في وقت متأخر من الذي يعتقدون أن الخيانة لا تتمتع بالفصاحة الكاملة، وليس لها قوام أو نكهة، الإنسان لا يخون، الحياة خائنة، الحظ خائن، لكن الإنسان لديه حكاية أخرى، حكاية عن الضعف الإنساني تجاه مفهوم السعادة، من الخائن في رواية "عشيق الليدي تشاترلي" هل كان دي. إتش. لورنس يتحدث عن خيانة الريف و

الحياة البسيطة لصالح تراكم الحديد والصناعة و التحديث، هل كان يتحدث عن خيانة الإنسان لطبقته عندما تحب ارسنقراطية رجل من الطبقة العاملة، أو عن خيانة كل نسخة رمها جانبا من هذه الرواية التي كتبها ثلاثة مرات متتالية باسماء مختلفة، هل فكر لورنس في خيانة السيدة أوتولاين موريل و عشيقها النحات تايجر وهما المصدر الحقيقي لكتابة الرواية، الاتهام بالخيانة مريح لأنه يلقي العبء من على كاهل المسؤول عن الخيانة، ليس لهذه الكلمة من معنى إلا أننا نعيش كما نريد وليس كواجب علينا القيام به، نحن في كل لحظة نقوم بخيانة ما، لأن الاخلاص يتطلب تماسكا في صلب الحياة لا وجود له، هل حقا كانت هيلين عشيقة ماركس؟ هل حقا كانت السيدة أوتولاين عشيقة تايجر؟

كتابات ماركس و إنجلز لو فكر أحد في نشرها قد تصل إلى 177 مجلدا، 30 مجلدا ستكون خاصة بالاقتباسات و الملاحظات، ومع ذلك نشر ماركس القليل جدا مما كتب، من المستحيل تخيل عمق الفكر الذي كتب كل هذه المجلدات، نشر المجلد الأول من كتاب "رأس المال" عام 1867م، كتب ماركس في رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها: "هذا ما ضحيت بسعادتي، و بأسرتي، وبحياتي من أجله"، هذا يفسر تماما قول ماركس: "ليس هناك من طريق سهل للوصول إلى العالم، فقط أولئك القادرين على تسلق مساراته المرهقة و الحادة يمكنهم الجلوس فوق قمم مضئية"، ماركس كان واحدا من هؤلاء، الأفكار الشيوعية كانت موجودة، الأفكار الاشتراكية كانت موجودة قبل ماركس، لكنها كانت أفكار طوباوية بعيدة عن إمكانية

تحقيقها في الواقع،ماركس هو من فكر في جانبها العملي بطريقة كانت تمثل صدمة لهذا العالم،الرأسمالية تجعل الحياة غريبة وكرهه إلى حد كبير،والإنسان سيعاني فيها من الظلم و الغربة،فكر ماركس في الكيفية التي يمكن بها عودة الإنسان إلى بيته الكبير وهو العالم،لا ماركس ولا إنجلز تم نشر نتائجهم بشكل منهجي ومدرّس في حياتهم و لا بعد مماتهم،بل إن سيرة ماركس لم تكتب إلا على يد فرانس مهيرنج عام 1918م،أي بعد الثورة الروسية في عام 1917م،أليست مفارقة أن يكتب سيرة ماركس شخص أتهم بمعادته السامية وكراهية اليهودية شعبا و دينا و ثقافة،واظهر مهيرنج أكثر من مرة انزعاجه من الرأسمالية اليهودية وتحكمها في الصحافة،لقد قرأ مهيرنج ماركس لأول مرة عام 1880م،وكان من عصابة سبارتاكوس مع اليهودية روزالكسمبورغ و كارل لينينخت،مهيرنج اعتبر روزا لوكسبورغ العقل الثاني بعد ماركس،وكان يحب جدا مقولتها "لا تبكي،لا تضحك،لكن افهم"،لقد مات مهيرنج بعد سماعه خبر اغتيال روزا و كارل على يد جماعة يمينية متطرفة،لم يستطع تحمل الخبر وانهار جسديا ومعنويا،هل حقا كان مهيرنج معاديا للسامية؟التاريخ مسؤول عن الإجابة عن هذا السؤال،لكن التاريخ ما هو إلا لعبة شد الحبل بين مجموعة من الحقائق أو الأكاذيب الممتعة،لم تنشر كتابات ماركس و إنجلز بشكل مدرّس بعض الشيء إلا في عام 1921م تحت إشراف معهد ماركس-إنجلز في موسكو،عندما تكتب سيرة ماركس فأنت أمام كتاب يبدأ بهذه المعلومة ولد ماركس يوم الثلاثاء في 5 مايو 1818م،في قرية

تسمى تربيته، أو تربيير، أو تريفز عليك أن تختار الترجمة التي تناسبك، لا أحد يريد الكتابة عن هيلين ديموث، كانت دائما هناك صعوبة في تمييز ماركس الرجل عن ماركس الفيلسوف و الاقتصادي، إلى الآن هذا الرجل مجهول، بينما في اليابان ينتظر الناس أي عمل مترجم لماركس بفارغ الصبر، في افريقيا هناك نوادي باسمه يتكلم فيها الناس عن العدل و الثورة، في استراليا هناك مطبوعات و نوادي و احلام تفوح منها رائحة الثورة، في امريكا اللاتينية ليس هناك ما هو مشهور أكثر من هذا الاسم، في امريكا هناك اتباع له باعداد كبيرة حتى وإن لم تتحول هذه الاعداد إلى قوة سياسية فهي موجودة، أما في العالم العربي فلم يعرف أحد معنى القمع و السجن و الإرهاب أكثر من الماركسيين، لدى عامة الناس ارتبط اسم ماركس بالمقولة المشهورة "الدين أفيون الشعوب"، وهي مغالطة وقع فيها مترجم أو مؤول هذه المقولة، بينما الترجمة الأمينة هي "الدين مسكن آلام الشعوب"، لقد كانت هذه المقولة ضد السلطة السياسية التي تريد منا انتظار العدل في الآخرة، وعدم السعي إليها في هذه الدنيا، والمفارقة العجيبة الأخرى هي أن إنجلز تكلم عن الدين أكثر من ماركس، وأن عائلة إنجلز متشددة دينيا أكثر من عائلة ماركس لدرجة أن إنجلز في كتاباته التي يهاجم فيها الدين كان يستخدم اوزوالد كاسم مستعار، بالرغم من كل ما كتب إلى الآن عن ماركس، لا أحد يعرف ماركس الإنسان، كان ماركس رجلا محبوبا ومثيرا لاهتمام، كان أبوه هيرشل ماركس محافظا ورجعيا من الناحية السياسية، و تلميذا نجيبا لفولتير ولينينتز، وحفظ كتب روسو، ولوك، و ليسينج عن

ظهر قلب، كان مناصرا للملكية واعتبر نابليون مخلص اليهود، هذا غير أنه بروسيا وطنيا، تخلى عن دينه اليهودي بسبب مرسوم حكومي يمنع اليهود من المناصب الرسمية و الانخراط في الاعمال المهمة، وهذا يطال عمله كمحامي، فلم يكن امامه إلا اعتناق المسيحية و اصبح اسمه هنريك بدل هيرشل، هناك من قال أن ماركس كان ممثنا لوالده الذي حرره من تطرف الديانة اليهودية لأنها ستكون عائقا في طريقه كثوري، لكن هذا هراء لا أحد يملك الدليل عليه، وقول مهرينج أن هذا التحول الديني لعائلة ماركس كان بإرادتهم الحرة أو بسبب قراءة هيرشل لفولتير هو إدعاء كاذب لا أحد يتقبله، هل هذه المعلومات مهمة؟ إن مثل هذه المعلومات لها كآبتها الخاصة، نعم ضرورية لكنها غير كافية ابدا.

لكي نصل إلى ماهية هيلين علينا السير مع مؤلفات ماركس و إنجلز، طلب إنجلز في وصيته وهو على فراش الموت أن تسلم كل أوراقه هو إلى إدوارد برنشتاين و اوغست بيبل، وهما من قيادات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، أما أوراق ماركس فيجب أن تسلم إلى بناته، فاخذتها أولا ابنته إليانور المقيمة في لندن، وقد انتحرت إليانور عام 1897م بعد اكتشافها زواج حبيبها إدوارد أفيلينغ سرا من ممثلة صغيرة، تعرفت إليانور على أفيلينغ مدرس الأحياء وتلميذ دارون في غرفة القراءة بالمتحف البريطاني، كانت تعتقد أنه مخلص للماركسية و لفكر والدها، لكن أفيلينغ كان كاذبا، بعد اكتشافها زواجه سرا تناولت السيانيد، ماتت إليانور وعمرها 43 عاما، انتقلت أوراق ماركس إلى ابنته لورا المقيمة بالقرب من

باريس، وهي ايضا قررت الانتحار مع زوجها بول لافارج الاشتراكي الفرنسي عام 1911م، ترك لافارج ولورا ورقة قبل الانتحار بدقائق يؤكدان فيها أنه ولورا لم يعد لديهم ما يقدمانه للحركة الماركسية، ولا داعي لانتظار الشيوخوخة، الموت وهما بصحة جيدة أفضل، وبهذا لن يكونا عبئا على أحد، كان لينين يضرب المثل بانتحار لافارج قائلا: "إذا لم يعد لديك ما تقدمه للحزب، فعليك النظر في وجه الموت بشكل مباشر كما فعل لافارج"، بعد موت لورا تم نقل الأوراق إلى أرشيف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، هناك حيث أوراق إنجلز، لقد اجتمع ماركس و إنجلز من جديد تحت سقف واحد بعد أعوام من الفراق، كان هناك رجل قد كرس حياته لنشر الفكر الماركسي بعيدا عن صراع البلاشفة و المناشفة أو الأغلبية و الأقلية وهو اليهودي ديفيد ريزانوف، وهو صاحب المقولة المشهورة: "أنا لست بلشفيًا، ولا مناشفيًا، أنا ماركسيًا"، هذا الرجل كان موسوعيا و يتكلم أربع لغات و مؤرخ ماركسي بعقلية منفتحة، كلف لينين ريزانوف بنشر أعمال ماركس وإنجلز، ذهب ريزانوف إلى ألمانيا عام 1923م ورجع بنسخة مصورة من كل أوراق ماركس و إنجلز، لكن المهم في هذه الرحلة هو اكتشاف ريزانوف لكتاب ماركس "الغروندريسة" وتعني هذه الكلمة الخطوط الرئيسية، وهذا الكتاب يتكوّن من مجموعة كرسات لم يطلع عليها إنجلز ابدا، ولم يعرف أحد بوجودها إطلاقا إلا شخص واحد هو هيلين ديموث، لقد دفع ريزانوف حياته ثمنا للمحافظة على أوراق ماركس، فبمجرد وصول ستالين للسلطة ألغى الحزب الإشتراكي الألماني إتفاقه مع ريزانوف الذي تم اعتقاله في فبراير

1930م بتهمة إخفاء وثائق من معهد ماركس-إنجلز، وعندما صرخ فيه الدكتاتور ستالين: "أين هي الوثائق اللعينة؟"، ابتسم بسخرية وقال: "ستجدها حيث وضعتها أنت"، سجن في موسكو ثم تم ترحيله إلى مخيم في سوزدال ومنه إلى سارتوف، وبسبب سوء حظ هذه الأوراق وصل هتلر للسلطة في ألمانيا وهذا ما دفع الحزب إلى تهريبها خارج ألمانيا، بيع الأرشيف بالكامل لشركة تأمين هولندية معروفة، فما كان من هذه الشركة إلا أن قامت بإهداء كل الأرشيف للمعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي في أمستردام.

المفارقات في حياة ماركس كثيرة، لكن أكثرها إثارة هي زواجه من يوهانا فون ويستفالن أو جيني كما تسميها العائلة، خطبها ماركس وهو في سن الثامنة عشرة، وتزوجها في عام 1843م، والد جيني كان ليبراليا وقد سمح لابنته بالزواج من خارج الطبقة التي تنتمي إليها، ومن خارج الديانة التي تعتنقها، والد ماركس لم يكن موافقا على هذا الزواج، كان ينظر إلى ماركس فيرى المارد الذي بداخله وخاف أن تدفع جيني الثمن، والدة ماركس اليهودية الهولندية هنرييتا برسبرغ نظرت إلى هذا الزواج كفرصة لضمان مستقبل ماركس، لكن لا يخلو الأمر من تحفظها حول فارق العمر بين ماركس وجيني، فقد كانت جيني تكبر ماركس بأربع سنوات، و والد جيني حاول تجاهل المارد الذي يراه وأن يفكر في ماركس كشاب ذكي و طموح وله مستقبل عظيم، كانت أسرة جيني بروسية و رجعية، وأخوها غير الشقيق فرديناند وصل إلى منصب وزير الداخلية، كان شخصية يمينية و إقطاعية متعجرفة، أما

أخوها الشقيق إدغار فقد كان يساريا و طائشا و جامحا،ولهذا هو مطرود من رحمة العائلة،لم يدرك والد جيني أنه يزوج ابنته للرجل الذي سيجرد طبقته و عائلته من إرثها القديم،ولم تعرف جيني نفسها أنها ستطرد من بلد إلى آخر بحثا عن أرضية ثورية تقبل أفكار ماركس،بلجيكا،هولندا ومنها إلى فرنسا ثم إنجلترا في نهاية المطاف،في لندن و في منزل لا يوجد فيه إلا الرطوبة و البرد و الجوع كان ماركس مع خمسة نساء يعمل على إنقاذ العالم من الرأسمالية،مات ثلاثة من أطفال ماركس وجيني بسبب أمراض متعلقة بالفقر،رهن معطفه من أجل الطعام مرات عديدة ،وعاش في فترات عديدة على المعونة التي يرسلها إليه خاله فيليبس من هولندا،لكن الفقر لم يمنع ماركس من أن يكون أبا حميما ورقيقا مع بناته،ماركس شخص لا يحب الخروج من البيت،وعدد الاصدقاء في حياته قليل جدا،شرس إذا تعلق الأمر بالحرب الفكرية خارج البيت ،أما في البيت فكان على العكس تماما،طريقته في التعامل مع بناته رائعة،ومع جيني شخص دافئ و عاطفي بشكل كبير،كان شكسبير مقدس في بيت ماركس،و الكل يستشهد بمقولاته أثناء الحديث،كان ماركس يقدم التضحيات الكبيرة بلا مرارة و لا فخر،و لأن البيت صغير فقد كتب كل أعماله على طاولة المطبخ،اشتا عشر عاما من الكتابة على طاولة المطبخ الذي تعمل و تنام فيه هيلين ديموث،لم تكن هيلين مدبرة منزل فقط،بل كانت سكرتيرة ماركس الشخصية،إنجلز صرح بأن ماركس كان يستشيرها

في كثير من الأمور، وإنجلز نفسه كان يستشيرها بعد موت ماركس و انتقالها للعمل عنده.

كانت جيني زوجة ماركس تحاول المحافظة على المظهر البرجوازي للعائلة بكل طريقة ممكنة، وهذا ما جعل ماركس يغرق في الديون المالية باستمرار، كانت تجر العائلة إلى الفقر بسبب بذخها و الحفاظ على مظهرها الذي يليق بعائلتها البرجوازية، كانت الدروس الخصوصية الخاصة ببناتها تحتاج إلى ثروة، التأخر في دفع الإيجار المرة بعد المرة يرهق أعصاب ماركس، الحي نفسه كان مكانا للمهاجرين و المجرمين، كان ماركس يشرب كثيرا بسبب هذه المشاكل المالية، و لا يجد طريقة للسيطرة على جني المبدرة، يصف ماركس الأمر في رسالة إلى إنجلز قائلا: "أنا في البيت في حالة حصار، دموع جيني لا تتوقف أبدا بسبب نقص المال"، هيلين كانت دائما معه في المطبخ من الصباح إلى ساعات متأخرة من الليل، كان لديها جمال داخلي هائل، و إخلاص يجعلها أكثر جاذبية، كان في استطاعت هيلين العمل في منزل آخر، لديها كل ما تحتاجه من الخبرة لتحصل على أجر أكبر من الذي تحصل عليه في بيت ماركس، لكنها على العكس كانت راضية و لم تطلب أبدا رفع أجرها، لقد ساهم ماركس في تطوير شخصيتها، كانت قوية و صبورة إلى أبعد درجة، ماركس نفسه كان ينفذ ما تطلبه منه، كان يثق في تدبيرها للأمور و حرصها عليه و على أسرته، حبها لماركس كان عظيما بقدر عظمته هو نفسه،، هيلين تجيد الانجليزية و الفرنسية إضافة للغتها الأم

الألمانية، كانت تقرأ بنهم و لديها أفكارها التي أخذها ماركس نفسه بعين الاعتبار، كان يجلس بقربها كل ليلة محاولاً كتابة صفحة جديدة في كتابه رأس المال، وهي تضع بقربه كأس من النبيذ الأحمر و تقوم بتشجيعه على الاستمرار في الكتابة، كانت جيني لا تهتم بحياة ماركس الجنسية بقدر اهتمامها بمظهرها، ماركس يقضي الليل بالقرب من هيلين، يتحدث معها عن الكيفية التي سيتغير بها العالم بعد نشر كتابه، كانت جيني تكره كلام إنجلز عن الجنس و الحب، إنجلز كان يعشق امرأة عاملة، و يعتبر أن ذلك منسجماً مع أفكاره، هذه الفكرة كانت ترعب جيني و لم تتقبلها على الإطلاق، لكن ماركس كان مقتنعاً بعلاقة إنجلز، كل رسائل الحب بين جيني و ماركس التي تم نشرها، أرسلها ماركس وهو في سن صغيرة جداً، وحتى الرسائل المتأخرة كانت قطعاً أدبية أكثر منها رسائل إلى زوجة، وهذا لا يعني أن ماركس لم يحب جيني، بل يعني أن العلاقة مرت بالكثير من التقلبات، و أن هذا الحب أثرت فيه الكثير من المشاكل العائلية، كان اهتمام جيني منصباً على أوضاع الأسرة المالية، بينما كان اهتمام هيلين منصباً على ماركس و على عمله، هيلين كانت ماركسية لأنها عشيقة ماركس، هيلين كانت برجوازية لأنها زوجة ماركس، هيلين كانت أرشيف ماركس الحميم، كل كلمة كتبها، كل ملاحظة سجلها، كل ورقة كتب عليها حرف، كانت تأخذها بحب و تضعها مع الأوراق المناسبة، لقد رتبت هيلين ماركس الكاتب و المفكر العظيم، لكن جيني لم ترتب ماركس الإنسان، كان يهرب من عذاب طلباتها إلى غرفة القراءة، إلى

الشراب، إلى حب هيلين، ليس في وسع الزواج مساعدة رجل يريد أن ينسى، هيلين كانت تتقذ ماركس من التحطم تحت ضغط الحياة اليومية، تتقذ المفكر العظيم من الجنون، و أنقذت أرشيفه من الضياع، كانت أوراق ماركس في يوم نقلها إلى بيت إنجلترا مربوطة في حزم، و مرتبة بعناية فائقة، لقد وضعت هيلين إشارات في بعض الأماكن، و أبعدت بعض الأوراق عن الأنظار، لقد أخفت هيلين "الغروندريسة" عن الجميع بما فيهم إنجلترا، خوفا من نشرها قبل رأس المال، كان هذا رأيها عندما ناقش معها ماركس الأمر، فطلب منها أن تخفي المخطوط، لقد أخفته وسط أوراق ماركس نفسها، ولم يكتشف هذا الإخفاء المتعمد إلا ريزانوف، وعندما سمع ستالين بذلك طلب المخطوطة من ريزانوف، لكن هذا الأخير رفض و دفع ثمن إخلاصه لماركس، هيلين العشيقة أنقذت ماركس بحبها في حياته، و بإخلاصها لفكره بعد مماته.

كانت التضيحة تغري إنجلترا بشدة، في رسالة من ماركس إلى إنجلترا بعد نشر الجزء الأول من رأس المال يقول: "بدونك لم أكن أستطيع كتابة هذا الكتاب، دائما كان ضميري يعذبني، لأنك تهتم بمصلحتي أكثر من مصلحتك، كيف لا يعذبني و أنا أرى كيف تهدر موهبتك العظيمة في روتين العمل الذي لا تحبه، و تشاركني كل حياتي البائسة لتأخذ أنت الجانب الرديء من الصفقة"، لقد جلس إنجلترا وراء مكتب في شركة العائلة "إرمان و إنجلترا" في مانشستر، فقط من أجل ماركس، كان فقر ماركس أكبر هموم إنجلترا، "لن أتركك ليكون فكرك العظيم ضحية حياة

المهاجرين و الفقر " هذا ما قاله إنجلز لماركس قبل أن يذهب و يجلس خلف المكتب الذي يكرمه، كان إنجلز يسمع جيني وهي تصرخ: "أتمنى أن أموت و معي أطفالي، هذا موسم المعارض، كل أصدقائهم يستمتعون، بينما هم مرعوبين من فكرة أن يزورنا أحد و ينظر إلى كل هذه القذارة"، لقد تقاسم إنجلز مع ماركس العذاب و الظلمة، تقاسم معه الفقر و هو ابن العائلة البرجوازية، كانت الصداقة قائمة على حماية ماركس من الانقسام بين عائلته و الكتابة، الوحيدة التي كانت تحمل هموم ماركس بنفس طريقة إنجلز هي هيلين، كانت تقف وسط دخان سيجار ماركس الكثيف، دخان كثيف لدرجة أنها لا ترى شيء في المطبخ، تبتسم في وجه ماركس تمسك يده بحنان و تقول: "كل ما كتبته إلى الآن ليس سوى نسخة أولية لما تريد فعلا كتابته"، جيني مهتمة بامتلاك المال، هيلين مهتمة بإنجاز ماركس العظيم، هيلين لم تكن مجرد عشيقة، و لم تكن مجرد خادمة، كانت صديقة ماركس الوحيدة، كان يحدثها عن أن كل الأدب و الفن الإغريقي و اللاتيني هو مناقشة لمسائل إجتماعية، ومع ذلك يبقى الوصول إلى مستوى هذا الأدب و الفن مستحيل بالنسبة لنا، كتب الغروندريسة تحت تأثير هذا الأدب و الفن، الغروندريسة تجربة محاكاة الأدب و الفن في عصر البراءة، لم يتكلم مع إنجلز أو جيني حول هذه التجربة، و لم يضعها ضمن أعماله، الغروندريسة تجربة ماركس الخاصة، هيلين وحدها إطلعت عليها، لقد جمع ماركس الفلسفة الألمانية، و الاقتصاد السياسي الإنجليزي، و الاشتراكية الفرنسية في كتاب واحد، درس القرن التاسع عشر على

أساس من تاريخ الاشتراكية الأولى في الحضارة الإغريقية و الرومانية، لقد فهم ماركس من هذه الحضارات أن الطبيعة الإنسانية هي مفتاح كل حديث عن المجتمع، كان يناقش هذه الأمور مع هيلين و هو يكتب الغروندريسة، حتى الأسم نفسه "الغروندريسة" يعني نهاية دراسة تشبه الوصول إلى نهاية رحلة طويلة و متعبة، أثناء هذه الرحلة كانت جيني تبحث عن المال لتعيش ضمن طبقة قد هجرها ماركس للأبد، كان يعيش مع هيلين ضمن الطبقة التي اختارها و دافع عنها، مع هيلين تقاسم العذاب و الظلمة، لم تكن هيلين العشيقية التي يعيش معها لحظات فرح، ثم يخرج من عندها ليعيش العذاب و الظلمة وحده، كانت معه في كل لحظة، في كل حرف، و في كل صفحة، و تقاسم معها إنجلز التضحية عندما حملت من ماركس، و أدعى أبوة الطفل الذي ولد يوم 23 يونيو 1851م، و منحه اسمه فريدريك لويس ديموث، لقد كانت هيلين جاهزة للإعلان عن الولاء و ليس الحب فقط، و إنجلز فعل نفس الشيء للمحافظة على اسم ماركس و خوفا على مستقبل كتاباته، هيلين بعيدة عن تعريف العشيقية على أنها المرأة التي تمارس الجنس مع شخص متزوج، كانت صديقة ماركس و تعيش فقط لتكون مثل قبة فوق كامل حياته لتحمية من كل ما يمكن أن يؤذيه، لو أن العشيقية مجرد جسد للجنس ما وقفت كلارا بيتاتشي إلى جانب الدكتاتور موسوليني و خلفهما جدار ل يتم إعدامها رميا بالرصاص معه، و ما كانت لتتحمل أن يلقي بجسدها مع جسد موسوليني و أربعة عشرة آخرين قبل الفجر بقليل وسط ساحة لوريتو في ميلانو، ثم يأتي الناس ليدوسوا

على جسدها بأقدامهم طول النهار، في اللحظة التي كان يستعد فيها منفذ الإعدام للرمية، نظرت إلى موسوليني وقالت: "هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها"، وهي نفس الجملة التي قالتها يوم نظرت في عيون موسوليني أول مرة قبل عشرين عاما، كأنها أرادت أن تقول: "أنا هنا معك، دعنا نتقاسم العذاب و الظلمة"، الجسد كان هو الشراكة الباهرة في الحياة و الموت.

"الشيء" يظهر بمظهر التافه، الشيء لا أهمية له في الواقع، ليس له قيمة إلا من حيث استخدامه، الإنسان الذي يعيش على الكفاف يعرف القليل من الأشياء، الإنسان البرجوازي يعرف الكثير من الأشياء، هل تشكل هذه المعرفة أي فرق؟ نعم لأن كمية الأشياء التي يملكها الإنسان تحدد نوع علاقته بالمجتمع، الأشياء هي السر وراء تقسيم المجتمع، الفن نفسه ما هو إلا طريقة لإبتكار أشياء جديدة، الفنان يكتسب مكانته بسبب هذه القدرة الفريدة، علينا أن نفكر مثلا في القوة الاجتماعية للملابس، العطور، الأثاث، هناك قصة حب طويلة بين الرأسمالية و الأشياء، هناك تاريخ طويل للصراع بين الكائن و الأشياء، الخراب الثقافي يحدث في الأشياء قبل عقول الناس، في زمن الإقطاع كان العبد يمثل مجرد شيء، ماركس كان يستخدم معطفه المشهور لحمايته من البرد و هو في طريقه إلى المتحف البريطاني، و أحيانا يرهن نفس المعطف مقابل المال، رهن المعطف يعني عدم الذهاب إلى المكتبة، و النتيجة التوقف عن الكتابة، لا يدخل المتحف البريطاني رجل بلا معطف حتى لو كان لديه بطاقة دخول، عقد كامل و ماركس يرهن معطفه

مرة للبقال و مرة للجزار،لقد رهن معطفه من أجل شراء ورق للكتابة،ورهن المعطف من أجل شراء الصحف،في مرة رهن ملابس هيلين و البنات و معطفه عند الانتقال لمنزل جديد،رهنها كلها مقابل ثلاثة جنيهات و عشرة شلنات،هيلين كانت قادرة على التضحية بكل شيء من أجله،المفارقة العجيبة هي أن ماركس كان يرهن معطفه في الدولة الأولى في صناعة النسيج في العالم،إنجلز نفسه كان يعمل في مجال صناعة المنسوجات،و هذا يعني أن المال الذي يحصل ماركس من رهن معطفه،أو من المساعدة التي يقدمها إنجلز كلها من صناعة النسيج التي تعمل بها عائلته في مانشستر،على طاولة المطبخ التي يكتب عليها تتزاحم الكتب و الصحف و السكاكين و لعب الأطفال و عدة الخياطة و خرق و قصاصات من الورق،كل هذه الأشياء أمامه و هو يكتب،قال عنها: "كانها طاولة لبيع الأشياء المستعملة"،تم القبض عليه و هو يحاول مرة رهن الشوك و السكاكين،بسبب شكله المزري و لكنته الإنجليزية الغريبة و شعره المبعثر،وخرج من مركز الشرطة بضمان صاحب المنزل الذي يعيش فيه،لقد عرف ماركس آلية عمل الرأسمالية من خلال التجربة المباشرة مع الأشياء في السوق،ومن خلال هذه التجربة عرف الفرق بين قيمته ككائن و بين الشيء الذي يريد أن يرهنه،لم يتعلم ماركس هذه التجربة من الكتب السياسية،بل هو أضاف هذه التجربة إلى الكتب السياسية،لقد كان المجتمع الإنجليزي مقسم إلى قسمين،الناس القادرين على شراء ملابس مصنوعة من القطن،و الناس القادرين على شراء ملابس مصنوعة من الصوف،وضعنا ماركس

على عتبة جديد لفهم المجتمعات و تقسيمها،مجتمعات بسيطة و شفافة،و مجتمعات معقدة و غامضة،التعامل مع الأشياء هو الذي يحدد الخطوط بين القسمين .

الفقراء و المحرومين أنفسهم مفتونين بالجانب المادي من الحياة،وكل طموحهم هو الحصول على أشياء أكثر و ليس الحصول على حياة أفضل،يشير مصطلح "محدثي النعمة" إلى رجل أو امرأة كان إلى فترة قريبة ينتمي لطبقة اجتماعية فقيرة، سمح له المال الجديد بصعود سلم الحراك الاجتماعي ووفرت له وسائل الاستهلاك شراء السلع والخدمات التي تميز الطبقة الثرية،هذه الفئة تظهر في المجتمعات الجائعة للمال،تتلاعب،تغش،تتسلق السلم الاجتماعي بسرعة لتحل محل البرجوازية القديمة،إنقارها للتعليم و الثقافة يجعلها قاصرة عن تحقيق هدفها،و قاصرة حتى عن التصرف في المال الذي جمعته بسرعة،في الأدب تظهر هذه الفئة كأشخاص يحبون البهجة و العبث وهم في غاية الحماقة و الجهل،ولديهم دائما ضيوف يسخرون منهم بمجرد الخروج من عندهم،يسخرون من غيابهم،و قلة ألبهم،تعاني هذه الفئة من نقص و تحاول تأكيد ذاتها بالمال،و تحب الترفيه التافه الذي لا يحتاج إلى علم أو ثقافة،وتلتصق كطفليات في البرجوازية القديمة،في كل زمان يظهر الشخص من هذه الفئة كمغفل و مثير للشفقة،بينما يظهر البرجوازي العريق لئيم و أناني و لا يرحم،يعمل الشخص من هذه الفئة على شراء الرجال بالمال،و إغواء النساء بالمال،كتب عنهم الكاتب الأمريكي فيتزجيرالد في روايته

"غاتسبي العظيم"، هذه الرواية تحكي فشل الحلم الأمريكي بسبب محدثي النعمة، لقد صنع أمثال غاتسبي مجتمعا فاسدا، وكتب عنهم موليير في مسرحية "البرجوازي النبيل"، جوردان في هذه المسرحية يكتشف بعد حصوله على الكثير من المال، أنه بلا تعليم أو ثقافة لا قيمة للمال، هذه الطبقة من محدثي النعمة تشكل مفارقة مأساوية في المجتمع، كيف يمكن فهم الحداثة الرأسمالية، وكيف يمكن فهم هذه الأزمة التي يعيشها العالم بسبب تناقضات الرأسمالية، دون استخدام أدوات ماركس، في ظل الهيمنة الرأسمالية لا بد من التمسك بكلام من فهم خداعها وزيها و قال: "إن المستقبل الثوري يقوم على العمل الإبداعي"، الناس جميعا لا يتخلون عن أفكارهم بسهولة، لهذا الرأسمالية لا تتخلى عن أفكارها، عدم التخلي عن الأفكار يشبه السفر بدون ملابس داخلية نظيفة، قد لا يتمكن أحد من معرفة ذلك، أنت وحدك من يعرف أن الوضع محرج و لا بد من التغيير، في فكرة العدالة نوع من الجاذبية لا تقاوم، لكن هذه الفكرة نفسه فيها مفارقة عجيبة، مفارقة تشبه معرفتنا أن الوحيد الذي عاش من عائلة ماركس ليرى الثورة الروسية، هو فريدريك ابن هيلين، و المفارقة الأكثر مأساوية أن الثورة قامت و هو مجرد عامل في مصنع.